الحيوَان بَين الغريزة وَالعَقل

الحيوان سبع أو بهيمة، والسِّباع سبيلها إلى الحياة اللحمان، والبهائم سبيلها إلى الحياة النباتات. ومن السباع ما يصيد بقوَّته وشراسته كالأسد والنمر والذئب وما إليها. ومنها ما يصيد بحيلته وخبثه كالثعلب، فإنه – على سبعيَّته – مستضعَف جبان ذو مكر وخبث وخديعة، وهو – من أجل ذلك – يجرى من كبار السباع ويعايشها.

وبعض الكائنات الحية لبعض، قوت وغذاء، فالذئب يصيد الثعلب فيأكله. والثعلب يصيد القنفذ فيأكله، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها. والأفعى تصيد العصفور فتأكله. والعصفور يصيد الجراد فيأكله. والجراد يلتمس فراخ الزنابير فيأكلها. والزنبور يصيد النحلة فيأكلها. والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها. والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها.. وهذا من العجب فى قسمة الأرزاق.

والحيوان عند أهل النظر جسم نامٍ حساس متحرك بالإرادة. فالدواب على ظهر الأرض والطيور فى جو السماء، داخلة فى دائرة الحيوان لأنها أجسام تحس وتنمو وتتحرك بالإرادة.

وأهل المعرفة يفرقون بين التصرف الناشئ عن الغريزة، وبين التصرف الناشئ عن العقل. فالتصرف الناشئ عن الغريزة أشبه شىء بتصرف الآلة فى عملها، فهو لا يتغيا شيئًا يكون نتيجة لمقابلة وموازنة وتخيُّر، خلافًا للتصرف الناشئ عن العقل. فإنه وليد مقابلة وموازنة واستنتاج.

ونضرب لهذه التفرقة مثلًا تصرف الحيوان الذى كدَّه الحر وجهده الظمأ، فإنه إذا رأى الماء اندفع إليه غير متصور أن فى الماء ريًّا من ظمأ وشفاء من غلة، ذلك أن رؤية الماء وحدها فى تصوره هى داعيته إلى الورود، لا يبالى فى سبيل ذلك خطرًا أو يتدبر عاقبة.

وأما التصرف الناشئ عن العقل فإن الإنسان يطلب الماء ليروى كما يطلب الطعام ليشبع، فليست رؤية الماء وحدها هى داعيته إلى طلب الماء، ولكن شعوره بالعطش مضافًا إليه أن فى الماء ريًّا من ظمأ وسفاء من غلة هو داعيته إلى طلبه الماء وحرصه عليه. فإذا كدَّه الحر وكاد يحرق أحشاءه الظمأ، صبر وصابر ثم قابل ووازن واستنتج. فربما رأى الموت بيد أعدائه خيرًا من الموت عطشًا حتف أنفه فقاتل فى طلب الماء فظفِر به أو هلك دونه.

ولا ريب أن الله تعالى قد كرَّم الإنسان وجعله فى الأرض خليفة، وجعل عقله خصيصته التى لا يُشركه فيها خَلق من خلق الله.

ولا ينبغى أن يكون معنى ذلك أن غيره من سائر الحيوانات لا يعقل، وإنما معناه أن للإنسان من هذه القوة العاقلة أوفر نصيب وأوفاه، وذلك مامن أجله سخَّر الله تعالى له مافى السموات وما فى الأرض، ونحن نظلم الحيوان أبلغ الظلم إن نحن سلبناه العقل بجميع صوره، وجعلنا جميع تصرفاته من قبيل الغرائز التى لا موضع فيها لمقابلة وموازنة واستنتاج، فإن للحيوان صورًا من التصرُّف لا يمكن أن تصدر إلا عن مقابلة ومفاضلة بحيث يستحيل حملها على الإدراك الغريزى الذى لا موضع فيه لشىء من الموازنة واستخراج نتائج تدعوه إلى تصرف يبتغى من ورائه ثمرة.

وغاية ما نستطيع أن نقوله فى هذا الباب هو أن القوة العاقلة فى الإنسان تنمو بطول التجارب وتبدل الأحداث، وأنه قادر على التعبير عن اختياره

وتصرفه باللغة التى أقدره الله تعالى عليها، وجعله بها خليفة فى أرضه. وإلا فإن ها هنا تصرفات للحيوان لا يمكن فهمها على أساس ماقرَّر العلماء بطبائع الحيوان من أن الغريزة لا أثر فيها لحيلة أو موازنة، وأن العقل هو وحده القادر لذلك، والقادر عليه والناهض به. ويتجلى ذلك فى الصور التالية التى لا يمكن إلا أن تكون وليدة عقل ما، يقابل ويوازن ويستنتج ويتصرَّف فى حدود هذا الاستنتاج، وآية هذه الذى نقول تلكم التصرفات التالية للإدراك الحيوانى الذى يستعصى اعتباره إدراكًا غريزيًّا خاليًا من المقابلة والموازنة والاستنتاج.

الأَيِّل مع الحيات:

فمن ذلك تصرف الأَيِّل مع الحيات.. والأَيِّل - بتشديد آخر حروف الهجاء مكسورة - تيس الجبل، جنس من المعز الجبلية، وعدد سنىّ عمره عدد العُقد التى فى قرنه، وهو صديق السمك، فهو يمشى إلى الساحل ليراه، والسمك يقرب من البر ليراه أيضًا، والصيادون يعرفون ذلك منها فيلبسون جلد الأيل ليقصدهم السمك فيصيدوا منه.

والأيل مولع بأكل الحيات، يطلبها حيث وجدها، وربما لسعته فسالت دموعه إلى نقرتين تحت محاجر عينيه، فتجمد تلك الدموع حتى تصير كالشمع، فيتخذ الناس منها ترياقًا لسم الحيات، وإذا وُضع على لسع الحيات والعقارب نفَع، ولا تنبت للأيل قرون إلا بعد مضى سنتين من عمره، فإذا نبت قرناه، نبتا مستقيمين كالوتدين، وفى الثالثة يتشعبان، ولا يزال التشعب فى زيادة إلى تمام ست سنين، فحينئذ يكونان كالشجرتين فى رأسه. وهو يلقى قرنيه فى كل سنة مرة، فإذا علم أنه غير ذى قرن وأنه عديم السلاح عندما ينصل قرنه، لم يظهر مخافة السباع. فإذا طال مكثه فى موضعه سمن. فإذا

سمن علم أن حركته تثقل وأنه يبطئ، فيزيد ذلك فى استخفائه وقلة تعرضه. فإذا نجم قرنه لم يجد بدًّا من أن يعرضه للشمس والريح، حتى إذا أيقن أن قد اشتد، أكثر المجيء والذهاب إرادة أن يذهب شحمه ويشتد لحمه، محتالاً أثناء ذلك للبعد من السباع، حتى إذا أمكنه أن يستعمل قرنيه فى النزال والاعتماد عليهما، رجع إلى حالة من مراعيه وعاداته.

والأيل إذا أكل الحيات، اعتراه عطش شديد، وبرَّح به شوق إلى الماء لا يتمثله حق تمثله إلا من يستطيع تمثل أشواق أنبياء الله إلى الله جل ثناؤه، على ما يقول سيدنا داود عليه السلام: «كما يشتاق الأيل إلى جداول المياه، هكذا تشتاق نفسى إليك يا الله». ومع ذلك ترى الأيل يتحامى الماء فلا يقترب منه ليشرب، وإنما يدور من حوله، وكأنه يتصبر برؤيته وتشاغله عن معالجته وشربه. وإنما يحجزه عن الشرب، علمه بأن فى ذلك عطبه، لأن السم حينئذ يجرى مع الماء ويدخل مداخل لم يكن ليبلغها الطعام بنفسه دون الماء.

وربما اصطيد الأيل فيجد القناص رءوس الأفاعى وسائر الحيات ناشبة الأسنان فى عنقه وجلد وجهه، لأنه حين يريد أكلها، تبادر فتعضه، فيأكل ما يناله ويفوته ما تعلَّق به منها بالعض، فتبقى الرءوس مع الأعناق معلقة عليه إلى أن تنقطع.

ونقول: إن هذا الذى ذكره الجاحظ من تجنب الأيل شرب الماء إذا أكل الحيات، شبيه بما تعارفه قومنا فى بلادنا من صعيد مصر، فإنهم يمنعون لديغ العقرب الماء، إذ أنه حين تلدغه العقرب يجد بعد فترة من الزمن ظمأ شديدًا، ولكن أهله يمنعونه الشرب خوفًا على حياته من سريان السم بسبب الماء، كما يفعل الأيل فى امتناعه عن شرب الماء مع شدة ظمئه إذا أكل

الحيات. فأيهما يا ترى تعلَّم من الآخر: الأيايل من الناس، أم الناس من الأيايل؟

ولست تشك - رحمك الله - فى أن الأيل يصدر فيما يصدر عن فطرة، وأن الناس يصدرون فيما يصدرون عن تجربة، وصدق الله مولانا العظيم: ﴿أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾.

الثعلب مع القنافذ:

ومن ذلك أيضًا تصرف الثعلب مع القنافذ، وهو حيوان من أكلة اللحوم ويضرب به المثل فى الاحتيال، وأنثاه ثعلبة، والذكر ثعلبان مثل الأفعوان لذكر الأفاعى، والعقربان لذكر العقارب، وليس فى هذه الألفاظ تثنية كما وهم بعض أهل اللغة.

وفى كتاب «نهاية الغريب»: أنه كان لرجل صنم، فكان يأتى بالخبز والزبد فيضعه عند رأسه ويقول له: أطعم - كل - فجاء ثعلبان فأكل الخبز والزبد، ثم بال على رأس الصنم، فقام الرجل فضرب الصنم فكسره[1]، ثم أنشد يخاطب صنمه:

لقد خاب قوم أملوك لشدة ... أرادوا نزالاً أن تكون تُحارب
فلا أنت تُغنى عن أُمور تواترت ... ولا أنت دفَّاع إذا حلَّ نائب
أَرَبٌّ يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

وضاق الرجل بدينه الوثنى واعتزم أن يُسلم، وكان طبيعيًّا أن يذهب إلى رسول الله ﷺ فقال له: «ما اسمك؟» قال: غاوى بن ظالم، قال النبى:

---

(١) رأينا فى بومباى - من بلاد الهند - أن سدنة معابد الأصنام هناك يضعون الفاكهة فى سلال فى تلك المعابد. وهو أمر يدل على تشابه الحياة الوثنية فى كل زمان ومكان.

«لا بل أنت راشد بن عبدربه»[١].

هذا، وأما القنفذ فهو حيوان صغير ذو شوك حاد، وهو يلتف فيصير كالكرة وبذلك يقي نفسه خطر الاعتداء عليه، فلا يتمكن منه إلا حيوان ذو حيلة تقوم لحيلته، والثعلب شديد الرغبة فى القنفذ، وفى ذلك يقول الجاحظ:

سألت القناص: ما رغبة الثعلب فى أكل القنفذ وإن كان حشوه شحمًا سمينًا، وفى ظاهر جلده شوك صِلاب جداد متقارب كتقارب الشعر فى الجسد؟ قال: إن الثعلب إذا أصاب القنفذ قلَّبه لِظهره ثم بال على بطنه فيما بين ذنبه إلى فكيَّه، فإذا أصابه ذلك البول اعتراه الأسن والدوار والعشى، فأسبط إسباطًا وقدَّد على وجه الأرض وانبسط، فعند ذلك ينقر الثعلب عن بطن القنفذ، ومن تلك الجهة يأكل جميع بدنه ومسلوخه الذى يشتمل على جلده.

ومن تصرفات الثعلب التى يستعصى اعتبارها صادرة عن غريزة مجرّدة عن الحيلة مايرويه الإمام الشافعى - رضى الله عنه - حيث قال[٢]:

كنا فى سفر فى أرض اليمن فوضعنا سفرتنا[٣] لنتعشى، وحضرت صلاة المغرب فقمنا نصلى ثم نتعشى، وتركنا السفرة كما هى وقمنا إلى الصلاة وكان فى السفرة دجاجتان مشويتان، فجاء الثعلب فأخذ احداهما. فلما قضينا الصلاة أسفنا عليها وقلنا: لقد حرمنا الثعلب طعامنا. فبينما نحن كذلك نتبادل الأسف على فقدان الطعام، إذ أقبل الثعلب وفى فمه شىء كأنه الدجاجة فوضعه فبادرنا إليه لنأخذه نحسبه الدجاجة قد ردها إلينا، فلما

---

(١) الحديث فى معجم البغوى وغيره، وفى كتاب «دلائل النبوة» لأبى نعيم الأصفهانى.

(٢) كمال الدين الدميرى فى حياة الحيوان

(٣) السفرة طعام المسافر

قمنا، جاء الثعلب إلى الدجاجة الأخرى وأخذها من السفرة ومضى. فلما أصبنا الذى قمنا إليه لنأخذه إذا هو ليف قد هيأه الثعلب على هيئة الدجاجة.

نقول: ولولا أن الذى ذكر هذه القصة هو العالم المصرى الثقة الدميرى، ولولا أنه رواها عن الإمام الشافعى، لقلنا حديث مخترع، وقصة من نسج الخيال، لأن تصرف الثعلب على هذه الصورة لا يمكن أن يأتى إلا عن عقل ذكى واسع الحيلة دقيق التدبير.

ومما وقع من فطنة الحيوان مقاربًا هذا المعنى ماذكره القاسم ابن أبى طالب التنوخى الأنبارى حيث قال:

كنت ماضيًا إلى الأنبار فى رفقة فيها ببازرة السلطان وقد خرجوا يروضون البزاة وأطلقوا بازيًا على درّاج[1] فطار الدرّاج إلى غيضة فدخل فيها، وألقى نفسه بين أشواكها، ثم أخذ من ذلك الشوك أصلين كبيرين فى رجليه ونام على قفاه ورفع رجليه، فاستتر بذلك من البازى. فلما قرب منه البياز طار الدرّاج فصاده البازى. فقال القوم: ما رأينا قط درّاجًا أحذق من هذا.

ومن أعجب سيء يُروى فى هذا الباب - وفيه من فطنة الطير واعتزازه ما يكاد يكون به إنسانًا - ماحدَّث به القاضى أبو على التنوخى: أن صيادًا من أهل أرمينية قال: خرجت إلى الصحراء يومًا فنصبت شبكتى وجعلت فيها طائرًا مستأنسًا، ودخلت فى كوخ تحت الأرض يسترنى وجعلت أنظر إلى الشبكة حتى إذا وقع فيها شيء من البزاة أو الصقور أو الشواهين أو غير

---

(١) الدرّاج: نوع من الطير يدرج فى مشيه.

ذلك من الجوارح أخذته، فلما كان قريبًا من الظهر إذا زمجة[١] لطيفة قد طارت على الشبكة فلما رأتها نفرت وترجَّلت قريبًا منها. فبقيت على الأرض ساعة وإذا عقاب جائز، فلما راها ترجَّل معها، ثم إذا طائر فى الجو فنهضت الزمجة قبل العقاب وطارت خلف الطائر فلم تزايله إلى أن صادته وجاءت به فنسرته وصار لحمًا، وأقبلت تأكل، فجاء العقاب؛ وأكل معها، فلما فنى اللحم زافّ[٢] العقاب عليها فضربت وجهه بجناحها، فزاف ثانية فضربته أشد من الأولى، فزاف الثالثة فضربته أشد من ذلك، ولم تزل تضربه بمنسرها إلى أن قتلته وطارت، فتعجَّبت من نفورها من الشبكة وقلت: هى كرزة[٣]، ويجوز أن تعرف الشبكة بالعادة. وطمعت فى أن أصيدها لأصيد بها، فبت ليلتى فى ذلك الكوخ، فلما كان من الغد رأيتها ترجلت قريبًا من الشبكة مثل ذلك الوقت، فنزل إليها عقاب فجلس معها، وعنَّ لها صيد فجرت صورتها مع العقاب الثانى كما جرت مع العقاب الأول سواء بلا اختلاف البتة، وطارت فزاد تعجُّبى وحرصى عليها. وبت ليلتى الثانية فى الكوخ، فلما كان اليوم الثالث رأيتها قد ترجَّلت على الصورة والرسم، وإذا بعد ساعة بعقاب لطيف الجثة وحشى الريش قد ترجَّل، فما مضت ساعة حتى عنَّ لها صيد، فهمت الزمجة بالنهوض فضربها العقاب ـاحه ضربة كاد يقتلها، ونهض مسرعاً إلى الطيران حتى اصطاد الطائر وجاء به فنَسره وطرحَه بين يديها، ولم يذق منه شيئًا حتى أكلت الزمجة واستوفت، ثم أكل هو بعدها لحم الطائر البـاقى، وفنى، فزاف عليها فزافت له ولم تمنعه، فزافت الثانية فركِبها فمكنته حتى سفدها ثم طارا معًا.

---

(١) الزمجة - بالزاى المعجمة -: طائر أبيض فى حد الحمام لا يأكل الجيف، وهو من الجوارح.

(٢) أراد أن يسفدها.

(٣) كرزة - على مثال سكره -: محتالة حذرة

ومما يدخل من هذا البابا عجيبًا غريبًا لا يستند إلى غريزة آلية بل يستند إلى إدراك ومنطق، ما يرويه على عن الحسن بن وافد القصاب من أن أبا جعفر البصرى - وكان من أهل الخير والصلاح - قال: أضجعت شاة لأذبحها فمرَّ أيوب السختيانى فألقيت الشفرة وقمت معه نتحدث، فوثبت الشاة فحفرت فى أصل الحائط ودحرجت الشفرة فألقتها فى الحفرة، وألقت عليها التراب، فقال لى أيوب السختيانى: أما ترى؟ فجعلت على نفسى عهد الله أن لا أذبح شيئًا من الحيوان بعد إذ رأيت من صنيع الشاة بالسكين.

الظربان والضَّباب:

الظربان - بالظاء المعجمة - حيوان صغير فوق جرو الكلب مُنتِن الريح، قصير اليدين جدًّا، وفيها براثن حِداد، وهو طويل الذنب، ليس لظهره فِقار، ولا فيه مفصل، بل هو عظم واحد من مفصل الرأس إلى مفصل الذنب، وربما ظفِر الناس به فضربوه بالسيوف فلا تعمل فيه حتى تصيب طرف أنفه، لأن جلده شديد الصلابة.

ومن عادته أنه إذا رأى الثعبان دنا منه ووثب عليه، فإذا أخذه تضاءل فى الطول حتى يبقى شبيهًا بقطعة حبل فينطوى الثعبان عليه، فإذا انطوى عليه نفخ، ثم زفر زفرة ينقطع منها الثعبان قطعًا، وله قوة فى تسلق الحيطان فى طلب الطير. فإذا سقط نفخ بطنه فلا يضرُّه السقوط.

هذا، وأما الضَّب فهو - بفتح الضاد المعجمة - حيوان من جنس الزواحف غليظ الجسم خَشِنه، وله ذنب عريض حرش أعقد، يكثر فى صحارى الأقطار العربية.

وفى صيد - الظربان الضب - يقول الجاحظ. إن الظربان إذا دخل على

الضب جوف جحره، اغتصبه نفسه، وذلك أنه يعلم أنه أنتن خلق الله فسوًا، فإذا دخل عليه سد فُروجه ببدنه، وهو فى ذلك مستدير له، فلا يفسو عليه ثلاث فسَواتٍ حتى يُعطى بيده[١] مستسلماً له فيأكله كيف تشاء

قالوا: وربما فسا الظربان - وهو بقرب من الهجمة باركة - [٢] فتتفرق فى الصحراء فلا يجمعها راعيها إلا بجهد شديد.

الفأرة والعقارب:

ومن عجيب الإلهام، أنه إذا جمع بعض أهل العبث وبعض أهل التجربة بين العقرب وبين الفأرة فى إناء من زجاج، فليس عند الفأرة حيلة أبلغ من قرض إبرة العقرب، فإما أن تموت من ساعتها، وأما أن تتعجل السلامة منها، ثم تقتلها كيف شاءت وتأكلها كيف أحبت.

الأسد والإنسان:

قلما يكون القوى محتالاً، لأن اعتزازه بقوته يجعله لا يهتم باللجوء إلى الحيلة. ومن هنا يكون الحيوان أخطر ما يكون إذا اجتمع له أمران: القوة، والحيلة ومثال ذلك ما رواه الجاحظ من أنه سمع حديثًا من سيوخ ملاحى الموصل، ومع هيبته له كان القوم يتقيلون الحديث فلا يكره منهم أحد، وخلاصته أن الأسد ربما تشبث بالحبل الغليظ من حبال السفينة، والملاحون يمدونها، فلا يشكون أن الحبل الغليظ من حبالها قد التف على صخرة، أو

---

(١) حطى بيده: استسلم غير مقاوم

(٢) الهجمة من الابل هى العدد الغليظ منها لا يقع لثة

تعلق بجذع شجرة وأصلها. فمن عادتهم عند ذلك أن يبعثوا الأول من المدادين ليحل الحبل فإذا رجع إليه الملاح ليمده، تمدد الأسد بالأرض ولزق بها مغمضًا عينيه كى لا يرى وبيصها[١] ويريقها بالليل. فإذا قرب الملاح منه وثب عليه فخطفه، فلا يكون للملاحين هم إلا إلقاء أنفسهم فى الماء وعبورهم إليه، فربما أكله إلا ما بقى منه، وربما جر فريسته إلى عريسه[٢] وعرينه، وإلى أجرائه وأشباله. وإن ذلك على أميال.

الأسد والكلب:

قالوا إن الأسد لا يحرص على شىء من اللحمان حرصه على لحم الكلب، بخلاف ما تزعمه العامة من أن لحوم الشاء أحب اللحمان إليه، ومن أجل حرص الأسد على لحم الكلب، لا ينفك يطيف بجنبات القرى طلبًا لاغتراره وأخذه على غفلة وعدم تنبُّه، لأن وثبة الأسد تعجِّل الكلب عن القيام وهو رابض.

وعلة طلب الأسد للكلب - فيما روى الجاحظ - إنما تتراءى فى حنقه عليه، وليس فى أن لحمه أحب اللحمان إليه، وذلك أن الأسد يأتى مناقع المياه وشطوط الأنهار فيأكل السراطين والضفادع والسلاحف صغارًا وكبارًا، فهو سره من أن يختار لحمًا على لحم، وقد مضى بعض الدَّهاقين[٣] فى بيان العلة التى من أجلها يطلب الأسد الكلب ويفترسه، فذكروا أن الأسد إذا أراد المتطرِّف من حمير القرية وشائها وسائر دوابها، فإن الكلب حينئذ ينبح، فإذا

---

(١) وبص البرق لمع

(٢) العريس - بورن سكين - الشجر الملتف، يكون مأوى للأسد.

(٣) لدهاقين رؤساء لقرى.

لجَّ فى النباح انتبه الناس ونذروا[١] بالأسد، فكانوا بين أن يحصنوا أموالهم، وبين أن يُهجهجوا به[٢] فيرجع خائبًا.

فإذا أراد الأسد طعامه من حمير القرية وشائها وسائر دوابها، بدأ بالكلب لأنه حينئذ يأمنُ الإنذار، ثم يستوفى على القرية بما فيها، فإنما يطلب الأسد الكلاب لهذه العلة وليس لأن لحمه أطيب.

الذرة وخزيتها من الحبوب:

الذرة: النملة الصغيرة الحمراء لا يرجح بها ميزان، ومن قول بعض العلماء: لأن تفضُل حسناتى سيئاتى بمثقال ذرة؛ أحب إلى من الدنيا وما فيها. وفى شأنها يقول الله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره﴾، وهذه الآية كان رسول ﷺ يسميها الجامعة الفاذة أى المنفردة فى معناها.

روى البيهقى فى الشعب من حديث صالح المروى عن الحسن عن أنس أن سائلا أتى النبى ﷺ فسأله فأعطاه تمرة، فقال السائل: سبحان الله نبى يتصدق بتمرة؟ فقال النبى ﷺ: أو ما علمت أن فيها مثاقيل ذر كثير؟ (يشير بذلك ﷺ إلى الآية الشريفة). ثم أتاه آخر فسأله، فأعطاه تمرة، فقال: تمرة من نبى من الأنبياء، لا تفارقنى والله ما بقيت، ولا أزال أرجو بركتها أبدًا، فأمر له صلوات الله عليه بمعروف. وفى رواية أنه قال للجارية: اذهبى إلى أُم سلمة فدعيها تعطيه الأربعين درهمًا التى عندها. قال أنس: فما لبث الرجل أن استغنى.

---

(١) نذروا به: علموه فحذروه

(٢) يرجروه ليكف عنهم

وأعطى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه سائلاً تمرتين فقبض يده، فقال: سعد: يا هذا إن الله قبل منا مثاقيل الذر.

وسمع هذه الآية الشريفة صعصعة بن عقال التميمى عند النبى ﷺ فقال: حسبى لا أبالى أن لا أسمع آية غيرها. وسمعها رجل عند الحسن البصرى فقال: انتهت الموعظة، فقال الحسن: فقه الرجل.

وهذه النملة الصغيرة الحمراء التى لا يرجح بها ميزان تجمع الحب فتخزنه - مضيًا مع سنة الأدخار - ثم تفلق الحبة فتأكل موضع القطمير منها لئلا تنبت فتفسد. فإذا كانت الحبة من حب الكزبرة لم ترض أن تفلقها أنصافًا بل تفلقها أرباعًا، لأن الكزبرة - من بين جميع الحب - تنبت، وإن كانت منفلقة أنصافًا.

ولا ريب أن هذا علم غامض إذا عرفه الشيخ الفلاح المجرب فقد بلغ النهاية فى الرياسة.

ذكاء الفصيل:

الفصيل ولد الناقة. وله من التصرف ما يبعد أن يكون غريزة. قيل لأعرابى: أتحسن أن تأكل الرأس؟ قال: نعم. قيل: وكيف تصنع به؟ قال: أبخص عينيه[١]، وأسحأ خديه[٢]، وأعفص أذنيه[٣]، وأفك لحييه، وأرمى بالمخ إلى من هو أحوج منى إليه. قيل له: إنك أحمق من الفصيل الذى يولد فى الربيع.

---

(١) بخص عينيه: قلعها مع شحمتها

(٢) سحا خده: يسحاه ويسحوه إذا قشره وكشطه.

(٣) عفص الأذن: لواها ثم قلعها

قال الأعرابى: وما حُمقه؟ «والله إنه ليتجنب العدواء[١] ويتبع أُمه فى المرعى، ويراوحُ بين الأطباء، ويعلم أن حنينها رُغاء، فأين حمقه»؟

المُكّاء والثعبان:

المُكّاء - بضم الميم وتشديد الكاف - طائر مثل القُنبُرة، سوى أن فى جناحيه بلقًا، وسمى بذلك، لأنه يَكو، أى يصفرُّ صفيرًا حسنًا، والمُكّاء: الصفير.

ومن عجيب الأحاديث فى إلهام الحيوان ما حدَّث به ابن الأعرابى عن هشام بن مسلم من رهط ذى الرّمّة قال: أكلت حيَّة بيض مُكاء، فجعلت المكاء تشرشر على رأسها وتدنو منها، حتى إذا فتحت الحية فاها وهمت بالمكاء ألقت هذه فى فم الحيَّة حسكة، ثم لم تزل تلقى إليها حسكة بعد حسكة[٢] حتى أخذ ذلك بحلقها فماتت، انتقامًا منها لأكلها بيضها.

وفى هذا المعنى يقول الأسدىّ الدبيرىّ - أبو قبيلة من أسد:

إن كنت أبصرتنى فذاً ومصطلياً فربما قتل المكاء ثُعبانا.

يقول هذا الشاعر لمن يتربَّص به الدوائر طمعًا فيه لأنه لا يعتزى إلى قبيلة تدافع عنه وتأخذ بثأره: إن كنت ترانى واحدًا ليس لى نصير، فقد يظفر الضعيف بالقوى، والقليل الأعوان بالكثير الأعوان، وذلك من طريق الحيلة، فإن المُكّاء من أصغر الطير وأضعفه، وقد احتال - مع ذلك - للثعبان حتى قتله.

---

(١) العدواء: غير المطمئن من الأرض

(٢) الحسك: شوك يبث فى الصحراء ترعاه الابل

من علمه الحذر؟

قال جالينوس فى الأخبار عن معارف البهائم والطير، وفى التعجب من ذلك، وتعجيب الناس منه: قولوا لى: من علَّم النسر الأنثى إذا خافت على بيضها وفراخها الخفافيش، أن تفرش الوكر بورق الدُّلب[1] حتى لا تقربه الخفافيش فى حال. والأطباء والعلماء يعرفون ذلك، ويعجبون منه ولا يتدافعونه مع أن النسور منسوبة إلى قلة المعرفة، والكيس ، والفطنة.

وفراخ العقبان:

ومن أعجب ألوان الإلهام ما ألهمه الله تعالى فراخ العقبان التى هى سباع الجوارح، فقد قال ابن الأعرابى وأبو الحسن المدائنى: قال رجل من الأعراب: «كان سنان بن أبى حارثة أحزم من فرخ العقاب».

ذلك أن جوارح الطير تتخذ أوكارها فى عرض الجبال، حيثما يكون الجبل عمودًا رأسيًّا، بحيث لو تحرَّك الفرخ لطلب الطعم حين يُقبل إليه أبواه فزاد فى حركته شيئًا من موضع مجثمه، لهوى من رأس الجبل إلى الحضيض، وهو يعرف – مع صغره وضعفه وقلة تجربته – أن الصواب فى ترك الحركة، فإذا استوى قصب ريشه وأحس بالقوة، طار وقد علمه أبواه الطيران تعليماً، ودرَّباه عليه تدريبًا.

---

(١) الدلب – بالضم – شجر بعظم ويتسع لا ثمر له ولا نمر وورقه كورق التين، وأحد وجهيه دو رغب.

اليربوع مع قومه:

اليربوع والضرس وذو الرميح أسماء مترادفة لحيوان طويل الرجلين قصير اليدين جدًا، ذى ذنب كذنب الجرذ، يرفعه صُعدًا، فى طرفه سبه النوارة.

ولون هذا الحيوان كلون الغزال، ولكنه يسكن بطن الأرض، لتقوم رطوبتها له مقام الماء، وهو يؤثر النسيم، ويكره البحار أبدًا. ويتخذ جحره فى نشز من الأرض، ثم يحفر بيته فى مهب الرياح الأربع، ويتخذ فيها كوى تسمى: النافقاء[1] والقاصعاء[2] والراهطاء[3]. فإذا طلبه الصائد من إحدى هذه الكوى نافق أى خرج من النافقاء، وإن طلب من النافقاء خرج من القاصعاء وظاهر بيته تراب، وباطنه حفر. وكذلك المنافق، ظاهره إيمان وباطنه كفر.

قال الجاحظ وغيره: واسم المنافق لم يكن فى الجاهلية لمن أسر الكفر وأظهر الإيمان، ولكن البارى جل وعلا اشتق له هذا الاسم من هذا الأصل - أعنى من نافقاء اليربوع - لأنه لما أبطن الكفر وأظهر الإيمان وورى بشىء عن شىء ودخل فى باب الخديعة وأوهم الغير خلاف ما هو عليه، أشبه فى ذلك فعل اليربوع.

وفى طبع هذا الحيوان، الذى حشاه الله خبثًا، أنه يطأ فى الأرض اللينة حتى لا يعرف أثر وطئه كما يفعل الأرنب، ثم هو يجترّ ويبعر، وله كرش

---

(١) موضع من جحر اليربوع يرفعه

(٢) فم الجحر أول ما يبتدئ اليربوع فى حفره

(٣) التراب الذى يجعله اليربوع على فم القاصعاء.

وأسنان وأضراس فى الفك الأعلى والأسفل.

وفى اليربوع يقول القزوينى: إنه من الحيوان الذى له رئيس مطاع ينقاد إليه. فإذا كان فيها كان من بينها فى مكان مُشرف، أو على صخرة، ينظر إلى الطريق من كل ناحية، فإن رأى ما يخافه على قومه، صرّ بأسنانه وصوّت، فانصرفت اليرابيع إلى أجحرتها. فإن قصّر بوصفه رئيسًا فى ابتغاء مصلحة قومه والحرص عليهم وحياطتهم، حتى أدركهم صائد فصاد منهم شيئًا، فإنهم يجتمعون على الرئيس فيقتلونه، ويولّون غيره. ثم إن اليرابيع إذا خرجت لطلب المعاش، فإن الرئيس يخرج أولاً يتشوّف هنا وهناك، فإن لم يرَ شيئًا يخافه على قومه صرّ بأسنانه صريرًا خاصًّا، تعرف به سائر اليرابيع أن الطريق غير مخوف، وأن ابتغاء الرزق مأمون، فتخرج سالمة غانمة.